المقدمة

يحاول هذه الكتاب اختراق منطقة شائكة من مناطق الثقافة العربية القديمة، والاقتراب من موضوع من موضوعات النقد العربي القديم، وهذا الموضوع يحاول كشف الاتجاهات النقدية بعد القرن الرابع ، تلك الفترة المهمة من تاريخ العالم العربي والإسلامي، وهي الفترة التي سبقها القرن الرابع الهجري ذلك القرن الذي يمثل مع القرن الخامس الهجري العصر الذهبي في النقد العربي قاطبة، وصل فيهما النقد إلى مكانة عظيمة، لم يصل إليها حتى اليوم، ثم تلي ذلك فترة شبه مظلمة، وبخاصة لنا في العصر الحديث؛ فقلة المصادر التي وصلتنا عن تلك الفترة جعلتنا نحكم بتراجع النقد، بل الانهيار الثقافي للحضارة العربية فيها، من الخمود الفكري والثقافي، تلك الفترة التي وصلت فيها مصر إلى مكانة خاصة بعد أن أصبحت حاضرة الخلافة الإسلامية الفعلية ووريثتها، فقد كانت الخلافة العباسية في بغداد تحتضر وتوالي سقوط مدن الشام في أيد الصليبين، مع محاولة الخلافة الفاطمية اجتذاب الشعراء والمثقفين والعلماء إلى القاهرة للدعاية لتلك الدولة الناشئة.

ونظرًا لخصوصية الموضوع وطول الفترة الزمنية بعد القرن الرابع الهجري فقد قمت بالتركيز على فترة القرنين السادس والسابع الهجريين، ولم أهمل القرنين الرابع والخامس، ثم التركيز على الموقف الثقافي والنقدي في مصر باعتبارها حاضرة الخلافة ومركز الثقافة الجديد، من هنا فقد قمت بتناول الفكر النقدي في مصر منذ نشأته حتى نهاية القرن السابع الهجري، لصعوبة فصل القرنين بالدراسة وحدهما؛ فقد أصبحت مصر حاضرة الخلافة الفاطمية في مصر بداية من عام(٣٦٢هـ)، وهو العام الذي وصل فيه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إليها، وتحولت معه مصر من مجرد ولاية تابعة للخلافة إلى مقر الحكم ومعقل الخلافة، فمنذ دخلها الإسلام في

سنة عشرين من الهجرة وهي جزء من هذه الدولة الإسلامية مترامية الأطراف، وإن كان لها طابعها الخاص الذي تميزت بها عن غيرها من الأقطار التي أظلتها الخلافة الإسلامية، إذ سرعان ما يستقل بها الحاكم المبعوث من قبل الخليفة، وبخاصة في أوقات الضعف التي تمر بها الخلافة، كما حدث مع الدولة الطولونية والإخشيدية، وتصبح الخلافة في مصر صورة رمزية.

وهذا التحول يمثل نقلة جديدة إذ إنه تحول على مستويات عدة؛ منها المستوى الديني الذي تغير معه طابع الدولة من المذهب السني إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي، وهو ما حدث مع اليوم الأول لدخول الجيوش الفاطمية مصر، **فيقول السيوطي في حسن المحاضرة**:"لما توفي كافور الإخشيدي لم يبق بمصر من يجتمع القلوب عليه، وأصابهم غلاء شديد أضعفهم؛ فلما بلغ ذلك المعز أبا تميم معد بن المنصور إسماعيل، وهو ببلاد إفريقية بعث مولى أبيه جوهر؛ وهو القائد الرومي في مائة ألف مقاتل، فدخلوا مصر في يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، فهرب أصحاب كافور، وأخذ جوهر مصر بلا ضربةٍ ولا طعنةٍ ولا ممانعةٍ، فخطب جوهر للمعز يوم الجمعة على منابر الديار المصرية وسائر أعمالها، وأمر المؤذنين بجامع عمرو وبجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحيّ علي خير العمل؛ فشق ذلك على الناس، وما استطاعوا له ردًا، وصبروا لحكم الله"[1].

فأصبحت الدولة ذات اتجاهين؛ الاتجاه الأول هو الاتجاه الرسمي الشيعي الإسماعيلي، والاتجاه الثاني هو الاتجاه العام، وهو المذهب السني مذهب الشعب وإن لم يعن هذا الفصل التام بين الاتجاهين، **يقول القلقشندى عن الفاطميين**:

"وأما سيرهم في رعيتهم – واستمالة قلوب مخالفيهم، فكان لهم الإقبال على من يفد عليهم من أهل الأقاليم جلّ أو دقّ، ويقابلون كل أحد بما يليق به من الإكرام، ويعوضون أرباب الهدايا بأضعافها، وكانوا يتألفون أهل السنة والجماعة

1 - السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر دار الفكر العربي ١٩٩٠م، ١/ ٥١٩.

ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك بذكر الصحابة رضوان الله عليهم، ومذاهب مالك والشافعي وأحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم، بخلاف مذهب أبي حنيفة، ويراعون مذهب مالك، ومن سألهم الحكم به أجابوه، وكان من شأن الخليفة أنه لا يكتب في علامته إلا " الحمد لله رب العالمين " ولا يخاطب أحدًا في مكاتبته إلا بالكاف حتى الوزير صاحب السيف، وإنما المكاتبات عن الوزير هي التي تتفاوت مراتبها، ولا يخاطب عنهم أحدٌ إلا بنعت مقرر له ودعاء معروف به ويراعون من يموت في خدمتهم في عقبة، وإن كان له مرتب نقلوه إلى ذريته من رجال أو نساء"[١].

واستنادا إلى ما قاله القلقشندي **يؤكد الدكتور شوقي ضيف** هذا الأمر بقوله:"إن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبي الفقه الشائعين حينئذ في مصر: المذهب الشافعي والمذهب المالكي "[٢].

وهذا التحول في الجانب الديني تبعته تحولات أخرى على مستويات مختلفة، فلأول مرة في المشرق الإسلامي تكون هناك خلافتان واحدة في بغداد وهي الخلافة العباسية، والثانية في مصر وهي الخلافة الفاطمية، ودارت بينهما صراعات عدة، بعضها ظاهر والأغلب منها خفي، وهذا الأمر قد أثر بصورة كبيرة في مسار الحركة الأدبية والفكرية، فمع ظهور قصر الخلافة يظهر الشعراء المداحون ويتم تسجيل هذا الشعر وتدوينه، ومعه يحضر المثقفون والمهتمون بالنقد والبلاغة للمشاركة في تقييم شعر هؤلاء الشعراء.

وبعد سقوط الخلافة العباسية على يد المغول ٦٥٦هـ تحولت مصر إلى قلب العالم الإسلامي، خصوصًا بعد عودة الطابع السني إليها بزوال الخلافة الفاطمية

1 - القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق : د.يوسف علي طويل، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م، :٣ /٥٢٠.
2 - د/شوقي ضيف:عصر الدول والإمارات (مصر)، الطبعة الرابعة، دار المعارف٢٠٠٣م ص:٧٩.

على يد أسد الدين شيركو، وصلاح الدين الأيوبي، لتصبح مصر منذ ذلك التاريخ قلب العالم الإسلامي، ومركز حضارته ومنارة ثقافته.

أهمية الموضوع:

تأتي أهمية الموضوع من خلال محاولة الكاتب إضاءة جانب مظلم من جوانب النقد العربي خاصة بعد العصرين الذهبيين الرابع والخامس، وهي مرحلة وصمت بالضعف وقلت عنها الدراسات النقدية، فسعى الكاتب إلى محاولة تبيان الدور الذي نهض به النقد الأدبي في مصر، باعتبار خصوصية المكان، وتفاعل الثقافات المختلفة لدى النقاد المصريين، ودور النقد المصري الذي نهض به في هذه المرحلة الحرجة من التاريخ الإسلامي، كما يلقي الكتاب الضوء على التيارات الفكرية التي سادت مصر والثقافة العربية في تلك الفترة.

التمهيد :

دخل الإسلام مصر منذ فتحها عمرو بن العاص عام (٢٠هـ) في خلافة عمر بن الخطاب، ومنذ ذلك التاريخ وهي جزء من الدولة العربية الإسلامية، واستمر ذلك حتى العصر العباسي الثاني، "فإذا كانت الدولة الطولونية قد حكمت مصر منذ سنة ٢٥٤ للهجرة، وكان الفتح العثماني قد وقع في عام ٩٢٣ للهجرة، فمعنى ذلك أن مصر قد تمتعت باستقلالها نحوًا من سبعة قرون، وهي مسافة زمنية كبيرة أتاحت لمصر فرصة كافية لتلعب دورًا هاما على مسرح الحياة الإسلامية الجديدة وأثبتت للعالم الإسلامي أنها ذات شخصية عظيمة لا تقل في عظمتها عن شخصية مصر في عهد الفراعنة، بشرط أن يحسب التاريخ حسابا لهذا الدين الجديد وهو الإسلام، كما يحسب التاريخ حسابا لهذا العنصر الجديد الذي امتزج بالمصريين؛ وهو العرب"[١].

ومع ظهور الدولة الطولونية ومن بعدها الإخشيدية في مصر بدأ يلوح في الأفق الاستقلال في الشخصية المصرية حتى جاء القرن الخامس الهجري الذي مثل مرحلة مهمة من تاريخ الحياة في مصر، فهي مرحلة فاصلة مؤثرة في كافة المستويات، إذ ازدهرت فيه الخلافة الفاطمية ،وهي الخلافة التي أصبحت معها مصر لأول مرة حاضرة الخلافة في العالم الإسلامي، "فتعد الحقبة الفاطمية من الناحية السياسية فاتحة عصر جديد في تاريخ وادي النيل، فقد أصبح لمصر فيها لأول مرة منذ أيام الفراعنة سيادة قومية تامة ممثلة في حكومة، عزيزة الجانب شديدة الحيوية، تقوم على أساس ديني.أما الدولتان السابقتان فلم تكن لهما أسس قومية أو دينية في البلاد، بل كانتا مدينتين في نشأتهما وكيانهما لنشاط مؤسسيهما العسكريين وانحلال الخلافة العباسية "[٢]

---

1 - د.عبد اللطيف حمزة:الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠٠٠م، ص: ١٢.

2 - د. مصطفى الصاوي الجويني :ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية (في القرن السابع الهجري)، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م، ص:٥٢.

وقد أثر الصراع الدائر بين الخلافتين العباسية السنية في بغداد والفاطمية الشيعية في مصر بصورة كبيرة في مسار الحركة الأدبية والفكرية، فمع ظهور قصر الخلافة يظهر الشعراء المداحون، ويتم تسجيل هذا الشعر وتدوينه إذ "كان الفاطميون يغدقون على الشعراء الأموال والهدايا، وبلغ حد التمجيد للشعراء عند الفاطميين بأن وضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده في طاقة في متنزهات عامة وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يغدقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعرًا جيدًا في مدح الأئمة، ويحدثنا عمارة اليمني أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى في مصر أخرجت له السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار"[١].

ونتج من اهتمام الدولة الفاطمية بالشعر والشعراء زيادة عدد الشعراء بشكل كبير، وهو ما أثر في حركة النقد في مصر والعالم العربي وبخاصة بعد سقوط الدولة الفاطمية، وقيام الدولة الأيوبية السنية بدلا منها، فقد حذف بعض النقاد هذه الأشعار وأمثالها، وما تم تسجيله في كتبهم كان الغالب فيها النقد الديني لا الفني.

كانت بداية النقد العربي مع دور اللغويين والنحويين الذي قامت على عاتقهم مهمة جمع اللغة والحفاظ عليها، وهؤلاء العلماء هم حجر الأساس في الدراسات النقدية التي تلت هذه المرحلة[٢]، وكما كانت البداية في النقد عند العرب نابعة من اللغة كذلك كان الأمر بالنسبة للنقد المصري إذ شغلت مصر باللغة بصورة كبيرة، "فعني علماؤها وأدباؤها بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستي البصرة والكوفة بهما؛ وهو ما أدي إلى نشوء طبقة من المؤدبين فيها وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثاني للهجرة فكانت تلقن الشباب في الفسطاط والإسكندرية مبادئ العربية، وانضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء

1 - د.خضر أحمد عطا الله:الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي،د.ت، ص:٢٤٧.
2 - أفرد طه أحمد إبراهيم بابا كاملا لدراسة أثر متقدمي النحويين واللغويين في النقد العربي وهو الباب الثالث في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)، وقد عد نقد هؤلاء اللغويين للشعر نوعا من النقد يراد به التعليم .

الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلي. نزيل الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة. وطبيعي أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطردًا طوال القرن الثاني للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغويا ونحويا. ولمدارستهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه[1] ، والحقيقة فإنه مع ما ذكره الدكتور شوقي ضيف عن علاقة مصر بالنقد من خلال اللغة: عماد الدين الإسلامي وروح القرآن الكريم،فإن النقد العربي تطور بشكل كبير قبل ظهوره في مصر، فبينما بلغ النقد العربي أوج ازدهاره في القرنين الرابع والخامس الهجريين من حيث التأليف فقد كان أول كتاب نقدي يظهر في مصر هو " المنصف" لابن وكيع التنيسي المتوفى(٣٩٣هـ)*.

وكانت بداية النقد المصري متميزة فقد بدأت من حيث انتهى النقد العربي؛ ففي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ثارت بقوة قضية كانت موجودة من قبل وهي قضية السرقات الشعرية بيد أنها في هذا الوقت قد ارتفعت حدتها، وزادت إلى حد المبالغة والإفراط، فرأينا مؤلفات خاصة بتلك القضية وكان المنصف أحد هذه الكتب السائرة في تجريح شعر المتنبي، وكلها كتبت في مدة

1- د.شوقي ضيف:عصر الدول والإمارات (مصر)، ص:١٠٨. وقد عد السيوطي منهم مائة وخمسة وثلاثين من علماء القراءات وكان أول مصري هو ورش عثمان بن سعيد أبو سعيد المصري -وقيل أبو عمرو وقيل أبو القاسم- أصله قبطي مولى آل الزبير بن العوام . ولد سنة خمس عشرة ومائة، وأخذ القراءة عن نافع، وهو الذي لقبه بورش لشدة بياضه، وقيل: لقبه بالورشان ثم خفف. انتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه، وكان ماهرًا في العربية. مات بمصر سنة سبع وتسعين ومائة انظر السيوطي: حسن المحاضرة١/٤٢٠

(*)هو ابن وكيع التنيسي(٠٠٠ - ٣٩٣ هـ = ٠٠٠ - ١٠٠٣ م): ووكيع بفتح الواو وكسر الكاف وسكون الياء المثناة من تحتها الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف أبو محمد الضبي التنيسي المعروف بابن وكيع الشاعر، أصله من بغداد ومولده ووفاته في تنيس (بمصر) . له (ديوان شعر - ط) وكتاب المنصف بيَّن فيه سرقات المتنبي،وكان في لسانه عجمة، ويقال له العاطس، وتوفي بعلة الفالج سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. قال ابن رشيق في كتاب أبكار الأفكار : وهو أجور من سدوم؛ لأنه تحامل فيه على أبي الطيب كثيرًا وهو خلاف التسمية{ المنصف}، إلا أنه دل على أنه كان له اطلاع عظيم إلى الغاية، ولم يرض له بالسرقة من شاعر واحد، حتى يعد الجملة من الشعراء ذلك المعنى المسروق.انظر:الصفدي في الوافي بالوفيات ، (١٦٣/٤)، وفي وفيات الأعيان ١٠٦/٢، والزركلي :الأعلام ، (٢٠١/٢) .

واحدة، وهي (الرسالة الموضحة) للحاتمي و(الكشف عن مساوئ المتنبي) للصاحب ابن عباد.

قدم ابن وكيع لكتابه بمقدمة ذات شقين، تحدث فيها عن وجوه السرقات وأنواع البديع، وهو الكتاب الذي نقضه ابن جني في كتابه المفقود: (النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته)، وكان ابن وكيع عنيفا قاسيا في نقده لشعر المتنبي حتى إن ابن رشيق هاجم موقفه ورفضه قائلا: "وأما ابن وكيع فقد قدم في صدر كتابه على أبي الطيب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر إلا الصدر الأول إن سلم ذلك لهم، وسماه كتاب المنصف مثل ما سمي اللديغ سليما، وما أبعد الإنصاف منه"[1].

أما ابن دحية فقد رفض ما قدمه ابن وكيع ناقدًا إياه، متهكمًا على عنوان كتابه قائلا:" وكم من مظلوم بريء نسب باتفاق خاطره وخاطر غيره إلى التلصص والإغارة، نحو ما ألفه ابن وكيع عن المتنبي في كتابه الذي سمّاه المنصف، وهو فيه أجور من قاضي سدوم"[2].

وقد قوبل موقفه من المتنبي هذا بالرفض من الصفدي فيقول :

"قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن علي الصوري: حدثني أبو منصور الحلبي: كان ابن وكيع هذا سمسارًا في بلده متأدبًا ظريفًا، سألني أن أخرج معه إلى توبة لنشرب، فخرجت معه، واستصحبت مغنيًا يعرف بابن ديار رطوب، وألقى إليه أن لا يغني إلا بشعره، **فغنى**:

---

1 - ابن رشيق القيرواني الحسن :العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق/محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى٢٠٠٦م ،القاهرة: دار الطلائع (٢/٢٤٣).

2 - (المطرب ١/ ٦٩)، وفي مجمع الأمثال للميداني: قالوا: سدوم، بفتح السين، مدينة من مدائن قوم لوط عليه الصلاة والسلام. قال الأزهري: قال أبو حاتم في كتابه الذي صنفه في المفسد والمذال، إنما هو سذوم، بالذال المعجمة، والدال خطأ. قال الأزهري: وهذا عندي هو الصحيح. قال الطبري: هو ملك من بقايا اليونانية، غشوم، كان بمدينة سرمين من أرض قنسرين. وكان يقصد ابن وكيع ساخرا من تسمية كتبه بالمنصف.

[مجزوء الكامل]

لـــو كـــان كـــل عليـــلٍ يــــزداد مثلــــك حــــسنا

لكــــان كـــل عليــــلٍ يـــود لـــو كـــان مـــضنى

يـــا أكمـــل النـــاس حـــسناً صـــل أكمـــل النـــاس حزنـــا

غيبـــت عنـــي ومـــالي وجـــهٌ بـــه عنـــك أغنـــى

وكان قد صنف كتاب سرقات المتنبي، وحاف عليه، وعَذَلْتُه فلم يرجعْ قلت: هل تثقل عليك الموافقة؟ قال: لا، قلت: أبياتك مأخوذة: الأول من واحد والثاني من آخر، **فالأول من قوله**:

[الوافر]

فلو كان المريض يزيد حسناً كمـا تـزداد أنـت علـى الـسقام

لما عيد المـريض إذاً وعـدت شـكايته مـن الـنعم العظـام[1]

والثاني من قول رؤبة:

[الرجز]

مسلم مـا أنـساك مـا حييـت لو أشـرب الـسلوان مـا سـليت

ما لي غنىً عنـك وإن غنيـت لـو أننـي صـممت أو عميـت

فقال: والله ما سمعت بهذا، فقلت: فإذا كان الأمر على هذا فاعتذر بمثله للمتنبي"[2]، فقد رفض أبو منصور الحلبي صنيع ابن وكيع وظلمه للمتنبي، وعندما لم يجد منه قبولا استخدم منهج ابن وكيع في نقد شعر المتنبي، وقدم له نموذجا من سرقاته، فاعتذر ابن وكيع من عدم سماع هذين البيتين من قبل، فكأنه هنا يقول بمبدأ وقوع الحافر على الحافر الذي أقره ابن وكيع عندما أقسم بعدم سماعه

1 - لم ينسب المحقق البيتين لقائل ولم أقف على صاحبهما.
2 - الصفدي: الوافي بالوفيات ،١٢/٧١-٧٢.

الأبيات المذكورة، وهو ما كان يجب على ابن وكيع أن يضعه في ذهنه في نقده لشعر المتنبي.

ولم يتوقف التأليف في سرقات المتنبي في مصر، فألف أبو سعد العميدي (ت٤٣٣هـ)* الإبانة عن سرقات المتنبي، وانضم إلى من سبقوه في الطعن على المتنبي، واعتبر أشعاره منسوخة عمن سبقوه، وعاب علي أنصاره فتنتهم بمعانٍ مسلوخة (في رأيه)، وكأنما كتب على المتنبي أن يتلقى سهام النقد والاتهام بالسرقة من النقاد في هذا القرن، وإن كان هذا يعد حافزاً للشهرة، وإبراز ثقافة الناقد الذي يهاجم المتنبي، من خلال إظهار براعته في إظهار سرقات المتنبي الشعرية، وبيان الثقافة العالية التي يتمتع بها الناقد الذي استطاع أن يستخرج الأبيات التي سرق منها شعره، فقد أصبحت سمة هذا العصر أن يهاجم راغب الشهرة المتنبي ليشتهر بين الكتاب.

بداية يقر ابن وكيع بفضل المتنبي فيقول:" إن القوم لم يصفوا من أبي الطيب إلا فاضلًا، ولم يشهروا بالتفريط منه خاملًا بل فضلوا شاعرًا مجيدًا، وبليغا سديدًا، ليس شعره بالصعب المتكلّف، ولا اللين المستضعف بل هو بين الرقة والجزلة، وفوق التقصير ودون الإطالة، كثير الفصول قليل الفضول لكنه بعد هذا لا يستحق التقديم على من هو أقدم منه عصرًا وأحسن شعرًا كأبي تمام والبحتري وأشباههما"[1]، ومع إقراره بفضله فإنه يفضل عليه أبا تمام والبحتري دون توضيح سبب نقدي واضح لهذه التقدمة والفضل، ولعل هذا من باب تقديم القديم على المحدث، وهو تفضيل زمني سبقه إليه نقاد كثيرون.

(*)هو أبو سعد العميدي الكاتب محمد بن أحمد بن محمد،أديب لغوي نحوي مصنف، سكن مصر وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وأربع مائة، وكان يتولى ديوان الترتيب وعزل عنه ثم تولى ديوان الإنشاء أيام المستنصر عوضا من ولي الدولة ابن خيران وتولى الديوان بعده أبو الفرج الذهلي، وله تنقيح العبارة في عشر مجلدات الإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنثور، انتزاعات القرآن، كتاب العروض، القوافي كبير. انظر:الصفدي في الوافي ٢/٥٥.

1 - ابن وكيع : المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره،تحقيق د/محمد رضوان الداية دمشق:دار قتيبة ١٩٨٢م.ص: ٢.

وهذه البداية التي بدأ بها ابن وكيع هي نفسها التي بدأها ابن العميدي في بداية كتابه عن المتنبي **فيقول**:

"ولست – يعلم الله – أجحد فضل المتنبي، وجودة شعره، وصفاء طبعه وحلاوة كلامه، وعذوبة ألفاظه، ورشاقة نظمه، ولا أنكر اهتداءه لاستكمال شروط الأخذ إذا لحظ المعنى البديع لحظا، واستيفاءه حدود الحذق إذا سلخ المعنى فكساها من عنده لفظا، ولا أشك في حسن معرفته بحفظ التقسيم الذي يعلق بالقلب موقعه، وإيراد التجنيس الذي يملك النفس مسمعه، ولحاقه في إحكام الصنعة ببعض من سبقه، وغوصه على ما يستصفي ماءه ورونقه، وسلامة كثير من أشعاره من الخطل والزلل والدَّخل، والنظام الفاحش الفاسد، والكلام الجامد البارد، والزحاف القبيح المستشنع، واللحن الظاهر المستبشع، وأشهد أنه على درجة أمثاله غير نازل ولا واقع، وأعرف أنه مليح الشعر غير واقع"[1] ، وإذا كان من هذا شعره فهو مستحق للتقدمة والفضل، ولا اعتبار لما يسمونه بالسرقات عنده؛ فهو بحسب كلامهما حامل لكل معاني الفضل والشرف في الشعر، فلقد قدم ابن العميدي في مقدمته صفات عظيمة لشاعر لو ثبتت له فما يبالي بعد ذلك ماذا يقول فيه معاند أو معارض، فما بالك بهذا المعارض له.

ولعل هذا الكلام الذي ذكره ابن وكيع في مقدمته هو الذي حدا بالدكتور إحسان عباس إلى اتهامه بالغيرة من المتنبي **فقال**:"إن الكتاب كان رد شاعر مغيظ على طبقة من المتعصبين لأبي الطيب، إذ كانت إقامة المتنبي في مصر قد أوجدت حوله عددًا من الأنصار والمعجبين، وكان لهؤلاء أنفسهم تلامذة يدرسون شعر أبي الطيب، ويذهبون في الإعجاب به مذهبًا بعيدًا، حتى فضلوه على من تقدم من الشعراء".

---

1 - محمد بن أحمد العميدي:الإبانة عن سرقات المتنبي، تحقيق/ إبراهيم الدسوقي البساطي، ذخائر العرب دار المعارف بمصر ،الطبعة الثانية ١٩٦٩م، ص:٢٤.

وحتى قالوا " ليس له معنى نادر ولا مثل سائر إلا هو من نتائج فكره وأبو عذره، وكان بجميع ذلك مبتدعًا ولم يكن متبعًا، ولا كان لشيء من معانيه سارقًا، لكان إلى جميعها سابقًا"، وليس من الضروري أن يقول المعجبون هذا كله وإنما هم خلقوا من حول ابن وكيع جوًا لا يستريح إليه، ولا يلائم ما يرجوه لنفسه من شهرة في الشعر"[1] ، ويحمل رأي الدكتور إحسان عباس جانبًا كبيرًا من الصحة وبخاصة مع هذا الموقف الذي يرويه" **قال ضياء الدين ابن الأثير**:

سافرت إلى مصر ورأيت الناس يشغلون بشعر المتنبي فسألت القاضي الفاضل فقال: إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس"[2] ، فقد كان المتنبي يجمع الناس حوله لأنه يعبر عنهم، ولعل هذا قد أثار عليه حقد غيره ومنهم ابن وكيع التنيسي كما قال الدكتور إحسان عباس.

فقد بين ابن وكيع سبب هجومه على المتنبي وحقده - على حد تعبير الدكتور إحسان - وهو تجمع الناس حول شعره وتغنيهم به، وهو ما حمل ابن العميدي للهجوم على المتنبي وشعره **فيقول**:" ليس تغني المتنبي جلالة نسبه مع ضعف أدبه، ولا يضره خلاف دهره مع اشتهار ذكره، ولقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الأبيات التي يفتخر بها أصحابه، وتعبر بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة، ومعانيها من معانيهم المخترعة مسلوخة، وإني لأعجب والله من جماعة يغلون في ذكر المتنبي وأمره، ويدعون الإعجاز في شعره، ويزعمون أن الأبيات المعروفة له هو مبتدعها ومخترعها ومحدثها ومفترعها، لم يسبق لمعناها شاعر ولم ينطق بأمثالها باد ولا حاضر، وهؤلاء المتعصبون له المفتخرون باللمع التي يزعمون أنه استنبطها وأثارها، والمعتدون بالفِقَر التي يدعون أنه افتضَّ أبكارها"[3] فمن هو ضعيف الأدب منسوخ الشعر هذا ؟! أليس هو الشاعر الذي تغني باسمه

1 - د.إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب(نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) الطبعة الرابعة، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٩٨٣.،ص:٢٩٤-٢٩٥.

٢- الوافي بالوفيات الصفدي:٣٢٤/٢ ،الذهبي:تاريخ الإسلام، ١٦١/٦.

3 - العميدي:الإبانة عن سرقات المتنبي، ص:٢٢.

بعد ذلك في النص المذكور قبل هذا النص؟ ألا يمثل كلام ابن العميدي هنا تناقضا مع كلامه الآخر؟ لاشك أنه متعارض ومتناقض مع نفسه حيال المتنبي، وهذا الأمر لاشك في ذلك يرجع لدوافع أخرى غير النقد الموضوعي، فإذا كان الدكتور إحسان عباس قد اتهم ابن وكيع بالغيرة والحقد على المتنبي، وأرجع هجومه على المتنبي لأسباب غير موضوعية فإن ابن العميدي قد تشابه مع ابن وكيع في الأمر نفسه.

ولو تأملنا كلام ابن العميدي فإننا نجده يعيد صياغة كلام ابن وكيع فيقول ابن العميدي في مقدمة كتابه :"والأدب يجعل الوضيع في نفسه رفيعا، كما أن الجهل يصير الرفيع في منصبه وضيعا، والمتنبي كان يفتخر بأدبه لا بنسبه، ويعتد بفضله لا بأهله، ويتطاول على أهل زمانه بفصاحة لسانه، وبضرابه وطعانه لا بتوحيده وإيمانه، ولولا أنه كان يجحد فضائل من تقدمه من الشعراء، وينكر حتى أسماءهم في محافل الرؤساء، ويزعم أنه لا يعرف الطائيين وهو على ديوانيهما يغير ولم يسمع بابن الرومي وهو من أشعاره يمير، ويسبهم ونظراءهم إذا قيل في أشعارهم إبداع، ويعيبهم متى ما أُنْشِدِ لهم مصراع لكان الناس يغضون عن معايبه على مساويه ومثالبه، ويعدونه كسائر الشعراء الذين لا ينبش عظامهم إنسان ولا يجري بذمهم وذامهم إنسان"[1] ، فالمبرر الذي يضعه ابن العميدي للهجوم على المتنبي هو انتقاص المتنبي لحق من سبقوه، وهي تهمة ليس هناك ما يثبت صحتها، ثم إنها ليست مبررا للتقليل من شأنه، فهي وإن كانت تعني الجحود والنكران لمن سبقوه في الفضل إلا أن هذا لا يقلل من روعة شعر المتنبي وقوته الفنية العالية التي لا ينكرها إلا جاحد.

و هو يؤكد موقفه هذا موضحا سبب هجومه على المتنبي فيقول:"إعجاب المرء بنفسه يشرع إليه ألسنة الطاعنين، وتطاوله على أبناء جنسه يجمع عليه ألسنة الشانئين؛ فلا نقيصة عندي أقبح سمة من اغترار الإنسان بجهله، ولا رذيلة أبلغ وصمة من إنكار فضيلة من يقع الإجماع علي فضله، ولا منقبة أجلب للشرف من

1-السابق ،ص:٢٤.

الاعتراف بالحق إذا وضحت دلائله، ومن الانحراف عن الباطل إذا استقبحت مجاهله، ولا دلالة على الحلم أبين من التوقف عند الشبهات حتى ينجلي ظلامها والتصرف على أحكام النصفة حتى تهديك أعلامها[1] ، وهذا الكلام يتضح منه السبب غير الموضوعي لهجوم ابن العميدي على المتنبي، وهو – عند ابن العميدي- أن المتنبي منح الشانئين الفرصة للهجوم بتكبره وزهوه بنفسه، وهو مبرر غير موضوعي؛ فمع التسليم بأن المتنبي كان معجبا بنفسه مزهوا بها فإن هذا ليس مبررا لاتهامه بالجهل. وهو الاتهام الذي تراجع به ابن العميدي عما مدح به المتنبي في الصفحة الرابعة من كتابه، ولعلنا نلاحظ هذا التقارب الشديد بين فكر ابن العميدي وابن وكيع في الرأي.

ولعل الفاصل الزمني القصير بين ابن وكيع وابن العميدي (حوالي ثلاثين عاما)كان حافزًا لابن العميدي على الاتفاق في الرأي تقريبا مع ابن وكيع حول المتنبي وشعره، ولم تذكر لنا كتب التراجم أنهما قد التقيا، وربما يكون هذا قد حدث بالفعل، وإن كان في اللقاء شك فإن الأمر الذي لاشك فيه هو اطلاع ابن العميدي على المنصف، وتأثره به بصورة بدت جلية واضحة لكل من يتصفح الإبانة، ويقارن بينه وبين المنصف.

ثمة قضية أخرى شديدة الأهمية والخطورة ثارت في هذا القرن التحولي الخطير (القرن الخامس الهجري) الذي يمثل مرحلة انتقالية في الثقافة العربية ذلك " أن الذوق الأدبي في أواخر القرن الرابع كان يعاني أزمة تحول، وأن هذه الأزمة ستشتد في القرن الخامس؛ ولن تكون هذه الأزمة في معظمها حول هذا الشاعر أو ذاك بل ستكون حول مجموع الخصائص التي تمثل حقيقة الشعر"[2] **فلأول مرة نشاهد صراعًا قويًا بين أنصار الشعر وأنصار النثر**، ومحاولة كل منهما الانتصار لصاحبه، فالمرزوقي عند تناوله لقضية عمود الشعر تعرض لهذه القضية

1 - السابق ،ص:١٩.
2 - د. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص:٣٨١.

بشكل مختلف، من خلال الإتيان برأي غير مألوف، هو تفضيله النثر على الشعر معتبرا أن النثر أعلى قدرًا وأفضل منزلة من الشعر، وهو عنده أمر واجب "اعلم أن تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء، موجبه تأخر المنظوم عن رتبة المنثور"[1] ، بل إنه خص البلاغة بالنثر وحده؛ فجعل الشعراء في مواجهة البلغاء(الكتّاب)، من خلال إطلاق لفظة البلغاء على الكتاب دون الشعراء.

والسبب في موقفه هذا أنه منذ القرن الخامس أصبحت غالبية الوظائف المهمة في الدولة في يد أصحاب الأقلام ،وقد عد السيوطي في حسن المحاضرة هذه الوظائف المهمة التي يشغلها الكتَّاب فقال:

" ومن ذوي الأقلام: الوزارة، كتابة السر، نظر الجيش، نظر الأموال، نظر الخزانة، نظر البيوت، نظر بيت المال، نظر الإسطبلات ومن ذوي العلم: القضاة الخطباء، وكالة بيت المال، الحسبة"[2] . فأصبح هؤلاء الكتاب يسيطرون على مناصب الدولة العليا، وصاروا هم المقدمون فيها؛ لأنهم كانوا يختارون من العلماء المشهود لهم بجودة الخط، وحسن الترسل والبلاغة العالية، وجاءت وظائفهم في المرتبة الثانية بعد أرباب السيوف، وهذا الأمر الذي اعتمد عليه المرزوقي في تفضيل النثر على الشعر، من خلال الوظيفة التي يؤديها كل منهما فيقول:

"فهو إنما يترسل في عهود الولاة والقضاة، وتأكيد البيعة والأيمان، وعمارة البلدان، وإصلاح فساد، وتحريض على جهاد، وسد ثغور ورتق فتوق، واحتجاج على فئة، أو مجادلة لملة، أو دعاء إلى ألفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية برزية، أو ما شاكل ذلك من جلال الخطوب، وعظائم الشؤون التي يحتاج فيها إلى أدوات كثيرة ،ومعرفة مفتنة"[3] هذه هي وظيفة النثر التي تملك وتحكم كل شيء وصاحبها هو يد السلطان وقلمه النافذ، بينما تكون وظيفة الشعر أقل مرتبة من

---

1 - المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، المقدمة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت دار الجيل ١٩٩١.ص:١٦.

2 - السيوطي :حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ١١٢/٢.

3 - المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، ج١، ص٢٠.

وجهة نظره، لسبب يعود إلى طبيعة الشعر نفسه، من خلال استخدام الشعراء له حيث " إنهم اتخذوا الشعر مكسبة وتجارة، وتوصلوا به إلى السوق كما توصلوا به إلى العلية، وتعرضوا لأعراض الناس، فوصفوا اللئيم عند الطمع بصفة الكريم والكريم عند تأخر صلته بصفة اللئيم، حتى قيل (الشعر أدنى مروّة السري، وأسرى مروّة الدني)[1]. وهذا الباب أمره ظاهر. وإذا كان شرف الصانع بمقدار شرف صناعته، وكان النظم متأخرا عن رتبة النثر، وجب أن يكون الشاعر أيضا متخلفا عن غاية البليغ"[2] ولاشك أن في كلام المرزوقي خلطا غريبا بين وظيفة كل من النثر والشعر؛ فالناثر يتكلم بلسان غيره ممن هو في خدمته، ويعمل تحت إمرته، ومهما يؤتي من البلاغة والفصاحة فهو مقيد بمعان لابد أن يؤديها، فوظيفة البلاغة هنا حلية لفظية للمعاني التي تؤديها الرسالة، والكاتب ملزم بتلك المعاني مقيد بتبليغها، لا يستطيع أن يحيد عنها، ومن ثم فهو لا يعبر مثل الشاعر عن مكنون نفسه وأحاسيسه "فليست غاية العمل الأدبي إذن أن يعطينا حقائق عقلية ولا قضايا فلسفية ولا شيئا من هذا القبيل؛ كما أنه ليس من غايته أن يحقق لنا أغراضا أخرى تجعله محصورا في نطاقها مصبوبا في قوالبها ....وليس معنى هذا أن العمل الأدبي لا غاية له، فالواقع أنه هو غاية في ذاته ،لأنه بمجرد وجوده يحقق لونا من ألوان الحركة الشعورية. وهذه في ذاتها غاية إنسانية وحيوية، تدفع عن طريق غير مباشر إلى تحقق آثار أخرى أكبر وأبقى"[3].

1 - اُختُلِف في صاحب هذه المقولة فنسبها الجاحظ لعمر بن الخطاب، وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق إنها لمعاوية ابن أبي سفيان قال معاوية بن أبي سفيان لعبد الرحمن بن الحكم أراك تعجب بالشعر فإن فعلت فإياك والتشبيب بالنساء فإنك تعربه الشريفة وترمي به العفيفة وتقر على نفسك بالفضيحة وإياك والهجاء فإنك تحنق به كريما وتستثر به لئيما وإياك والمدح فإنه كسب الوقاح وطعمه السؤال ولكن أفخر بمفاخر قومك وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وشعرك وتودد به إلى غيرك وقال الشعر أدنى مروءة السري وأفضل مروءة الدني.
ونسبها الزمخشري لزياد بن أبيه في ربيع الأبرار٤٥٢، وكذلك أبو حيان التوحيدي في البصائر والذخائر ص:٦٧

2 - المرزوقي: شرح ديوان الحماسة ، ص:١٦-١٧.

3 - سيد قطب:النقد الأدبي (أصوله ومناهجه)، دار الشروق، الطبعة التاسعة ٢٠٠٦م. ص:١٢.

ويبدو أن المرزوقي قد تأثر بحديث الجاحظ في البيان والتبيين عندما قال:"**وقال أبو عمرو بنُ العلاء**:

كان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلي الشِّعر الذي يُقيِّد عليهم مآثِرهم ويفخِّم شأنَهم، ويهوِّلُ على عدوِّهم ومَن غزاهم، ويهيِّب من فُرسانهم ويخوِّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعرُ غيرهِم فيراقب شاعرَهم، فلمّا كثُر الشِّعر والشعراء، واتخذوا الشِّعر مَكْسَبَةً ورحلوا إلى السُّوقة، وتسرَّعوا إلي أَعراض الناس، صار الخطيبُ عندهم فوقَ الشاعر، ولذلك قال الأوَّل: الشِّعر أَدنى مروءة السرّيّ، وأَسْرَى مروءة الدَّنيّ، قال: ولقد وضَع قولُ الشعر من قدر النَّابغة الذبيانيّ، ولو كان في الدِّهر الأوَّل ما زادَه ذلك إلاّ رِفعة.... وكان سهل بن هارون يقول: اللسان البليغ والشعر الجيِّد لا يكادان يجتمعان في واحِد؛ وأعسَرُ من ذلك أن تجتمع بلاغةُ الشعر، وبلاغة القلم، والمسجديُّون يقولون: من تمنّى رجلاً حَسَنَ العقل، حسنَ البيان، حسنَ العلم، تمنّى شيئًا عسيرًا"[1].

فيكاد الكلام عند المرزوقي يتطابق مع ما ذكره الجاحظ في البيان، بل إنه اتكأ على النتائج التي توصل إليها الجاحظ، بيد أن البون شاسع بين نقد الجاحظ الذي بناه على أسس السابقين وأقوالهم، ولم يهاجم الشعر ذلك الهجوم الشرس الذي هاجمه المرزوقي، بل قدم عرضًا تاريخيا لتفوق الشعر ثم تراجعه، فيما قدم المرزوقي الهجوم مباشرة على الشعر.

بيد أن وظيفة الشعر هنا غير المباشرة تختلف تمام الاختلاف عن وظيفة النثر الديواني التي ذكرها المرزوقي في تحقيق هدفها المباشر، ذلك الاختلاف الذي تغاضى عنه المرزوقي، وقد رفض ابن رشيق (ت٤٥٦هـ) موقف المرزوقي من المنطلق ذاته **فقال**:" واحتج بعضهم بأن الشعراء أبدًا يخدمون الكتاب، ولا تجد كاتبًا يخدم شاعرًا، وقد عميت عليهم الأنباء، وإنما ذلك لأن الشاعر واثق بنفسه. مدل بما عنده

1 - الجاحظ :البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣. سلسلة الذخائر، ص :٧٣.

على الكاتب والملك؛ فهو يطلب ما في أيديهما ويأخذه، والكاتب بأي آية يفضل الشاعر فيرجو ما في يده؟ وإنما صناعته فضلة عن صناعته، على أن يكون كاتب بلاغة، فأما كاتب الخدمة في القانون وما شاكله فصانع مستأجر، مع أنه قد كان لأبي تمام والبحتري قهارمة وكتَّــاب، وكان من عميان الشعراء كتاب أزمة كبشار وأبي علي البصير، وكان ابن الرومي من أكبر كتاب الدواوين، فغلب عليه الشعر؛ لأنه غلاب. وكما تجد من يمدح السوقة في الشعراء فكذلك تجد للسوقة كتابًا وللتجار الباعة، في زمننا هذا وقبله"[1] ، ولاشك أن الوعي النقدي عند ابن رشيق أكثر إدراكًا من المرزوقي الذي غفل عن هذه الحقيقة الجلية أو تغافل عنها، فالشعر لا يقارن بالنثر الديواني للبون الشاسع في وظيفة كل منهما، وإنما يقارن الشعر بالنثر الفني لتطابق الهدف وهو المتعة الفنية والتشكيل الحر، لا التحلية اللفظية.

ولعل من الجدير بالذكر أن نقف عند أمر جدير بالملاحظة ، فمادام النثر أفضل من الشعر فلماذا خالف المرزوقي موقفه هذا واختار شعرًا لا نثرًا ليقوم بشرحه ؟! فلقد خالف في تطبيقه العملي ما دعا إليه في قوله النظري.

إن الجاحظ وهو يعلي من شان النثر كان يتكلم عن وعي فني ونقدي، وانظر إلى مختاراته في النثر الذي كان يعلي من شانها تعرف الفرق بينه وبين المرزوقي؛ فقد تحدث عنها الجاحظ في الحيوان مؤيدًا أنصار النثر على حساب الشعر **فقال**:

" فقد صحَّ أَنَّ الكتبَ أبلغُ في تقييدِ المآثِر، من البُنيان والشعر. ثم قال بعضُ مَنْ ينصر الشعر ويحوطه ويحتجُّ له: إنَّ التَّرجُمان لا يؤدِّي أبدًا ما قال الحكيمُ، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيَّاتِ حدوده، ولا يقدِر أَنْ يوفيها حقوقها، ويؤدِّيَ الأمانة فيها، ويقومَ بما يلزمُ الوكيلَ ويجبُ على الجَرِيّ، وكيف يقدِر على أدائها وتسليمِ معانيها والإخبار عنها على حقِّها وصدقها، إلاّ أَنْ يكونَ في العلم بمعانيها، واستعمالِ

1 - ابن رشيق القيرواني:العمدة في محاسن الشعر وآدابه،١٩/١.

تصاريفِ ألفاظِها، وتأويلاتِ مخارجِها ، ومثلَ مؤلِّف الكتاب وواضعه، فمتى كان رحمه اللَّه تعالى ابنُ البِطرِيق، وابن ناعمة، وابن قُرَّة، وابنِ فِهريز وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفَّع، مثلَ أرِسطاطاليس؟ ومتى كان خالدٌ مثلَ أفلاطون؟"[١] .

فموقف الجاحظ واضح في الانتصار للنثر على حساب الشعر لكنه لم يهاجم الشعر، ولكن أي نثر ، هل كان واحد من هؤلاء الكتاب الذين عدهم الجاحظ من كتاب الدواوين؟وهل كتب أفلاطون رسائل خلفاء للثغور والعطايا؟ هذا الفارق الواضح بين المرزوقي الذي هاجم الشعر، وقلل من دوره في مواجهة النثر الفني سائرًا على ضرب الجاحظ، ولكنه لم يكن على وعي جيد في تلقيه لكلامه.

ولم ينشغل المشرق العربي بتلك القضية فحسب بل تردد صداها في الأندلس ،فقد ذكر ابن شهيد الأندلسي*(ت:٤٢٦هـ) إن "الخطباء أولى بالتقديم"[٢] ، ولم يكن ابن شهيد في الأندلس وحده هو من تحدث في هذه القضية بل إن النقاد الأندلسيين شغلوا به بصورة واضحة جلية للعيان، وهو ما لفت انتباه الدكتور شريف راغب علاونة، فسعى إلى تتبع هذه الدراسة، ورصدها في بحث بعنوان "المفاضلة بين الشعر والنثر النقدي الأندلسي"، خلص من خلاله إلى نتيجة مفادها أن الجدل قد اشتد "حول هذه القضية بين المفكرين والمفلسفين من النقاد في القرن الرابع الهجري، من أمثال أبي سليمان المنطقي(ت:٣٨٠ه) وأبي إسحق الصابي (ت: ٣٨٤ه) وابن هندو الكاتب (ت:٤٢٠ه)، وأبي علي مسكويه (ت:٤٢١ه)، وغيرهم ممن تناول أبو حيان التوحيدي(ت ٤١٤ه)آراءهم ومواقفهم في مقابساته ومسائله ومناقشاته. فقد روى في كتابه المقابسات مقابسة عن أبي سليمان المنطقي في النثر والنظم، وأيهما أشد أثرا في النفس ونقل في كتابه " الهوامل والشوامل" إجابة أبي علي مسكويه ردا على سؤل يتعلق بالنظم والنثر

1- الجاحظ :الحيوان: تحقيق/عبد السلام محمد هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سلسلة الذخائر ٧٦./٧٥.

2 - ابن شهيد الأندلسي:رسالة التوابع والزوابع،تحقيق/بطرس البستاني،دار صادر بيروت ١٩٩٦م.ص:٩١.

ومرتبة كلّ منهما، وطبقات الناس فيهما. وانتهى إلى أن " الأكثرين قدموا النظم على النثر، ولم يحتجوا فيه بظاهر القول، في حين قدم الأقلون النثر، وحاولوا الحجاج فيه"[1] .

ولأن هذا العصر بدأت فيه سيادة كتاب البلاط وأصحاب الدواوين فقد أصبح من الضروري أن يتبع الهجوم على الشعر التقليل من شأنه والحط منه بصورة كبيرة في مواجهة النثر، وهو الأمر الذي تصدى له عبد القاهر الجرجاني(٤٧١هـ) في كتابه دلائل الإعجاز تحت عنوان(**الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه وذم الاشتغال بعلمه وتتبعه**)، وابن رشيق القيرواني في العمدة تحت عنوان (**باب في الرد علي من يكره الشعر**)، غير أن المرزوقي كان يحكم في حديثه من منظور الشعر الذي أخذ في الانحدار منذ فترات طويلة، فأصبح الشعراء المجيدون قلة يمكن حصرها، خاصة منذ بداية العصر العباسي الثاني، ففي القرن الرابع مثلا كان المتنبي يغرد وحده في الساحة، ولم يظهر بعده شاعر فحل من العظام، وهو ما استمر فترات طويلة، بينما كان عصر الإبداع العربي التأليفي قد أخذ يزدهر منذ القرن الثالث في مختلف العلوم الأخرى، في مقابل الشعر الذي أخذ ينزوي جانبا، وكفي دليلًا على انحدار الشعر وندرة الفحول أن تعد الفحول منهم ، ففي مجالات التأليف اللغوي والنقدي والمعجمي والأدبي ما لا يعد أو يحصى من الكتب والمؤلفات التي تذخر بها المكتبات في أوروبا أكثر من المكتبات العربية لذلك كان حقا على المرزوقي أن يعلى من شأن النثر المزدهر في مواجهة الشعر المنزوي المضمحل، حتى جاء حازم بعد ذلك وأقرّ به **فقال**:

" والذي ران على قلوب شعراء المشرق المتأخرين وأعمى بصائرهم عن حقيقة الشعر منذ مائتي سنة، فلم يوجد فيهم على طول هذه المدة من نحا نحو الفحول ولا من ذهب مذاهبهم في تأصيل مبادئ الكلام وإحكام وضعه وانتقاء

1 - د شريف راغب علاونة : المفاضلة بين الشعر والنثر النقدي الأندلسي ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، حمادي الثاني ١٤٢٧هـ، ج ١٨ عدد٣٧،ص: ٤٦٤.

مواده التي يجب نحته منها فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ودخلوا في محض التكلم هذا على كثرة المبدعين المتقدمين في الرعيل الأول من قدمائهم والحلبة السابقة زمانا وإحسانا منهم"[1] ، وكان حل الشعر وتحويله إلى نثر من التدريبات المهمة للكاتب في ديوان الإنشاء في تلك الفترة، فيسرد **القاضي الفاضل** ما حدث له عند دخوله دار الإنشاء في مصر **فيقول**:

"أمرني والدي بالمسير إلى ديوان المكاتبات وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجل **يقال له** :

ابن الخلال،فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبتي رحب بي وسهل، ثم سأل ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال في هذا بلاغ! ثم أمرني بملازمته فلما ترددت إليه، وتدربت بين يديه. أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة ، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني بأن أحله مرة ثانية فحللته"[2] .

ويري الدكتور إحسان عباس أن هذه الطريقة التي تعلمها القاضي الفاضل في ديوان الإنشاء قد أثرت في نقده **فقال**:

" ولما كانت طريقته النثرية تعتمد في أساسها كثيرًا على حل المنظوم، فإنها تحولت بنقده في وجهتين.

أولهما: تقريب المسافة بين الشعر والنثر.

والثانية: ملاحقة المعاني ومحاولة تصنيفها وحصر أنواعها"[3] ، يؤكد هذا الرأي موقف ابن شيث* في حديثه عن العلاقة بين الشعر والنثر **فيقول**:

---

1 - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق/محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الثالثة١٩٨٦م، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان.ص: ١٠.

2 - ابن الأثير: الوشي المرقوم في حل المنظوم، تحقيق الدكتور جميل سعيد ،بغداد: المجمع العلمي العراقي١٩٨٨م، ص:٥٥، وذكره ابن خلكان نقلا عن ابن الأثير انظر وفيات الأعيان ٢١٩/٧-٢٢٠

3 - د. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص:٥٩٣.

"قال الحذاق من أهل الصناعة إن الكتابة هي حل المنظوم من الشعر إذ معاني الشعر قد استخدمت لها الألفاظ كلها لعناية الناس بها، فإذا كان الكاتب ماهرًا نظر إلى المعنى الذي يقصده من الأشعار فحل نظمه وحلى به كلامه ولهذا قلنا إن نعوت الشعر تصح أن تكون للنثر ابن شيث"[١]، قد أجمع النقاد المصريون في هذه الفترة على فكرة أن المتعلم يجب أن يتدرب على حل المنظوم حتى يمتلك ناصية اللغة، وتفرد ابن شيث بعدم وجود فرق بين الشعر والنثر في رأيه سوى الوزن وتتلخص مهارة الكاتب في إرجاع الكلام إلى أصله وحل الوزن عنه، ويصبح كلامه محلى بهذا الشعر المحلول، وتقاس مهارة الكاتب بمقدار نجاحه في هذا الحل.

1 - عبد الرحيم بن شيث: كتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، بيروت:دار الكتب العلمية ١٩٨٨م، ص:٩٦.